الحيل الثقافية الهيمنة ... و الإمتاع قراءة مخالف لديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) لأدونيس

الكلمات المفتاحية:أدونيس – الهيمنة – الامتاع

ا.م. د. نوافل يونس الحمداني

جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الانسانية

Dr.*nyhp@jmail.com*

الملخص

يرصد النقد الثقافي ما تمرره النصوص بحيلها البلاغية والجمالية من أنساق مخاتلة عبر نمذجة من الخداع باستعمال ما هو بلاغي و جمالي أو مجازي مما يستوجب قراءة كاشفة لما يقبع من مفاهيم تحت عباءة النصوص ، وما تنطوي عليه من ممارسات ثقافية تتصل بتصورات معينة تجاه بعض المواقف ، و لاسيما أن المجتمعات الآن يمكن أن تخضع إلى تحولات تنتج بفعل حركة الحداثة تغيرات مجتمعية يمكن أن تكون فيها مصادمة أو اختلاف في المنظورات .

يتبنى (أدونيس) مفكرا ومنظرا رؤى وتصورات مفاهيمية يجسدها في خطابه الشعري بأساليب (معرّضة) مرة ، و(مقوّضة) مرة أخرى ، ويعد خطابه في ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) من قبيل الكتابة المضادة ، التي تعرّي أو تكشف بعض ما تواضعت عليه الثقافة المجتمعية من أنظمة أو أنساق تخص بعض الثيمات من مثل الدين والمرأة والعرق والتاريخ ، لذا فأن ثراء النص الأدبي بتكوينات ثقافية عرقية أو فئوية يظللها ستار من المفارقات الصادمة بحضورها استجابة ونقضا ،– حتى وإن كانت تمثل طابعا فرديا ، لكنها إن تضافرت مع رؤى آخرين شكلت نسقا عاما – يجسد إشكاليات متوارثة غير أنها بعيدة عن التمظهر ، مما يستدعي الرصد الثقافي النقدي للكشف والاعلان عن المخاتل والمندس داخل النص .

المقدمة

الحيل الثقافية... وفعل الهيمنة

تفرض النصوص سطوتها الثقافية على المتلقي بما تحمله وتمكنه وسائل الهيمنة فيها ، وتشكل الحيل الثقافية إحدى هذه الوسائل في ممارسة الهيمنة عليه ، وبما يحقق الامتاع الذاتي والنفسي لديه ، وهذا يشترط بالنص أن يكتنز بمجموعة من الحيل الثقافية أو النسقية أو الجمالية (حسب ما عدته الرعية الثقافية جميلا) (١)، ويشترط النقد الثقافي لدراسة الحيل و الكشف عنها أن يتوافر النص على نظامين أو نسقين متضادين ، الأول : ظاهر ترتضيه الذائقة المتقبلة لصحته ، والثاني مضمر مخاتل يكون محل كشف وتعرية التحليل الثقافي له ، ولابد أن يكون النص جميلا ويستهلك بوصفه جميلا (٢) ، ومع اقراري بهذا إلا أنني ذهبت في تصوري إلى أبعد من ذلك ، حيث وقفت على نمطين من الحيل : النمط الأول : حيل الهيمنة وهي حيل تقع ضمن الخطاب العام للنص وتتشكل من خلال المراودة ومن ثم الإقناع الذي يطرح التعويض النفسي بديلا يتحقق على ضوئه نوع المصادرة من خلال الرؤيا العامة للأشياء ، و تتجسد تلك الرؤيا في الخطابات الأدبية بشكل خاص ، وأما النمط الثاني فلا استبعد أن يكون خطاب إمتاع غير محكوم بخطاب دون خطاب أو بنص من دون آخر ، وهي الحيل الأقرب للاستحواذ على الإمتاع النفسي عند المتلقي ولاسيما في قضايا عالقة في الذات تثيره نفسيا وعقليا كالدين والعرق واللون والألوهة والأنوثة والجنوسة إلى غير ذلك من القضايا الفكرية المدعومة برؤيا جمالية وإبداعية يستغلها المبدع ضد المتلقي ، وهي ما نجدها متوافرة في ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) لأدونيس ، وهذا يجسد تلازمية الحيلة والنسق ، بمعنى لا أن تكون هناك حيل ما لم يكن هناك نسق ثقافي ((يتميز بالتجذر والتأصل والرسوخ..)) (٣) .

يعمد أدونيس في بعض الاحيان إلى الأحداث التاريخية البارزة كي ينقب فيها، وقد يذهب إلى القضايا الأقل وضوحا لنبشها أو تلك الغامضة في التراث الديني والإنساني يستفتح مغاليقها ، و في أحيان أخرى يحاول أن يشوهها ولو على نحو مقصود، فهو دائما يتطلب مساحة كبيرة من النقض إزاء مساحة لا بأس بها من حرية الكلام يسوغها المجتمع ، و ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) شهادات على التعري النفسي في الفكر المؤسساتي للثقافة العربية إنه حفر ذاتي جريء وتمزيق ممنهج للقناعات الشخصية الراسخة

لأفراد وشخصيات سوية ، أدونيس في هذا الديوان يشتغل على التأسيس لفكرة الإمتاع التي يحاول أن يصنعها من خلال حيل منوطة بمحاورة الوعي الثقافي وإثارة تفاعله إزاء مسائل الخلاف حتى بين أبناء القرية الثقافية الواحدة ; ولاسيما تغييره دلالات بعض القضايا و تشويهها تشويها وجوديا ، كما ويطبعها بطابع من السخرية في الرؤى من خلال محاولاته اللغوية في ارتياد فضاء التخييل العبثي [٤] ، بما يتلاءم و طرح فئة معينة ، وتعد هذه من الحيل الذكية ، المستهدفة في إطار الإبداع والإمتاع ، تقانة موارية تخادع المتلقي طويلا حتى يستلب قناعته الخاصة ويصادرها تماما ، وهذه غاية يتمناها أي مرسل للخطاب ، في أن ينقاد إليه المتكلم انقيادا بلا استعصاء [٥] ضاربا نوعا من الهيمنة الفكرية عليه ، فالحيل الثقافية ((تمر من خلالها أخطر أنساق الهيمنة وأشدها تحكما))[٦] .

النسق المخاتل :

وقد يتخذ أدونيس من اللغة وطاقتها (نسقا مخاتلا) يمرر من ورائه غاياته التي يصبو إلى تحقيقها من خلال حيل تستثمر لغة مرمّزة تومئ بمحمولات ثقافية ، لأن ((مفهوم النسق الثقافي ليس فقط مجموع كل القيم المشكلة للثقافة الشاملة في مجتمع بعينه في زمن بعينه ، انما هي أيضا مجموع تفاعلات القيم الثقافية المتعددة المنابع فيما بينها منتجة أفقا ثقافيا شاملا))[٧] ، وهو في كتاباته النقدية يقدم توضيحا لنوع اللغة الشعرية التي يصوغ منها بناءه الشعري ; فالشعر تركيب لغوي جديد صفته الرئيسة تجاوز الكلمات لمعانيها المعجمية في بناء شعرية حداثية تؤسس موقعها الفعلي والحقيقي في العالم ، ولها وظائف ذات دلالات غير متناهية ورموز ذات إشعاعات غير محددة يتوحد فيها الفكر والانفعال ، ولا تكون الصورة في هذا التركيب مجرد تشبيه أو استعارة او كناية ، يقصد بها تجميل الأسلوب ، بل تصبح في نفسها الفكرة التي لا يصلح بدونها التعبير ، و ((ترتكز لغة أدونيس على بلوغ النحوية أدنى مرتبة يمكن أن تصل إليها بتراكم الانحرافات والابهام والتضاد مع ارتفاع نسبة الكثافة في التخييل والتشتت في النسيج (مما) يجعل القراءة عملية فرضية إبداعية يتم اجراؤها في حوار مستمر مع النص المثير لمجالات دلالية متداخلة)) [٨].

فاللغة الشعرية تتضمن ألفاظا ومعاني لا حدود لها ، تتوحد معا ، لتشكل بناء متميزا وخاصا ، وهي عنده لغة خلق ، وليست مجرد وسيلة للتعبير ((لغة خلق الأشياء

ذاتها ، وأن تشير إلى أكثر مما تشير إليه فهي إذا لغة الإشارة)) [٩] ، إذ تتجاوز وتتعدى ، تتحرك وتعلو على ذاتها :

في صخرة القدس

ماذا ، ما الذي ينبغي ؟

سائق الليل يهوي ، والنجوم يجفّلن أفراسه

السماء انفجار يجيء ويذهب ، رأسي له ملعب [١٠]

إن اغترابات النص المجازية من خلال إسناداتها اللغوية المفارقة تحيل على مدلولات متضاربة تمتد إلى منطقة قصية تستفحل على المنطق لكن الشعر يجعل التقبل لما تنفلت منه المدلولات المألوفة نحو الجديد من الرؤى من خلال تحفيز التفكير أمر له قيمته الاستفزازية ، لكون الشعر في منظور أدونيس تجاوزا للظواهر ومواجهة للحقيقة الباطنة في العالم كله ، ومخالفة للقيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية ، والشك بالمسلمات الوجودية ، وشعره ((لا يقدم موضوعا أو فكرة تقع خارج القصيدة أو على مقربة منها بل يقدم جسدا نصيا نضاحا بالرفض والاسئلة المريرة)) [١١]، فمن الطبيعي ان تحيد اللغة عن معناها العادي ، فاللغة في الشعر الجديد ((ثورة على اللغة ، حيث جعل مهمتها في اقتناص ما لا يمكن اقتناصه عادة ، وان تقول ما لم تتعلم ان تقوله ، ما لا تعرف اللغة العادية ان تنقله ، بل تحولت إلى صانعة تخيل ضمن آلية لا يحددها سياق منطقي)) [١٢] يقول :

قلقي ان رأسي مليء

بفراغك ان امتلاءك لغو ب ((نحن))

وكنا وكانوا ومن أين جاؤوا وجئنا

قلقي انك اختناق ب ((حتى)) ، و ((أنّى)) ، و ((ليت)) [١٣]

في تشكيل النص على نحو من مطاوعة اللغة في رفده بتناوبات الضمائر والأدوات [١٤] ما يخدم فلسفة الشاعر ورؤيويته ، ويحرّك المتلقي لمعاودة التفكير بالوجود والتوغل في أبعاد الامتداد الحضاري لتاريخية الانسان وارتباطه بالآخر و بما حوله من الأشياء ، وأن ما في النص من أبعاد رؤيوية تنأى به عن الادراك المباشر إلى التلغيز و الغربة الفكرية للذات ونظيرها ، تمثيله لما يشغله بنحو مؤسطر بـ (نحن ، الآخر) رفض لمسلمات الوجود الذاتي

ونبذها ، وهذا يعني أن النص أخذ عند أدونيس _ من وجهة نظري _ منحى يضمر في داخله نسقا آخر مخاتلا غير ذلك النسق الظاهر الذي يتمظهر به الخطاب عنده ،وفي قوله:

وناديك يا لات أنت الأنوثة، شعر

أن تكون السماء سريرا وأنثى [١٥]

ينحرف مستوى التفكير بالنص إلى التشويش ومن ثم هدم المرتكز حتى الديني منه ، ما يحقق جدلا فكريا منافيا للحقائق وباعثا على التأمل في إمكانية طرح عقائدي يخلخل المسلمات الوجودية ، لذا يُعنى أدونيس بلغة الشعر الفنية الغامضة المعاني ، ولأن القارئ الاعتيادي يريد لغة واضحة المفهوم الأمر الذي يؤدي إلى تنافر بين شاعر الحداثة والواقع بما يضفيه من رؤى جديدة ومخالفة ينحاز بها إلى مستوى من التغريب الذي يتجاوز المنظومات الاجتماعية والدينية ، ويباعد بين الفكر وواقعه [١٦] ، فغرابة الجملة (أن تكون السماء سريرا و أنثى) بما تحمله من شحنة عالية قد فعّلت هذا التنافر الذي يصح هنا بسبب من غرابته أن نسم (أدونيس) بالمغامر، ومع ذلك نقول: ليس من الضرورة ، لكي نستمتع بالشعر أن ندرك معناه إدراكا تاما، بل لعل مثل هذا الإدراك يفقدنا الشعور بالمتعة.

ومن خلال ما تقدم ندرك تماما ان اللغة الشعرية الحداثية إنما ارتفعت وسمت بالغرابة في تحريك الفضاء النصي نحو انفتاح قرائي يكشف عالم أدونيس الشعري المسكون بالتساؤلات والـلا سكون والرؤى المغايرة ، عالم تتنوع فيه الصياغات والتراكيب من غير تنميط بل بشعرية مغايرة تفتق اللغة طاقة خلاقة تومض على سطح النص لتضيء ما ورائياته ، فيثير فينا المتعة الذوقية التي نتلقاها من قراءة الشعر ! وفي قراءتنا لـ (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) رصدنا حيله الثقافية المتمثلة بـ :

١- الدين ...والصدمة :

إن أدونيس من أبرز الشعراء الذين لا نحتاج فيهم إلى دليل للبحث عن سمة التحايل الفكري ، فهو ((موسوعة ثقافية مختزنة... ، وتعد تجربته من أغنى التجارب الشعرية العربية عمقا في مجال المرجعيات النصية)) [١٧] ، ومن ثم خوضه في قضايا ذات شأن كبير وأهمية بالغة في التراث الديني والتاريخي وسعيه لإثارة الشك بالمسلمات والحقائق الوجودية ذات الابعاد الأيديولوجية والعقائدية ، وبما يؤدي إلى جدل فكري محرك للثوابت القارة ويشكل اللحظة التاريخية للبنى ، فاشتغاله تفعيل للأسئلة والنقاش الحر وترشيح لفكرة

الانفتاح على فضاء الممكن [١٨] ، ويعد الدين واستخدامه لأغراض سياسية ومصلحية ، مما يشغل أدونيس مفكرا وشاعرا معبرا عن رؤاه الفكرية إزاء هذه الثيمة التي برزت بشكل واضح في خطابه الشعري ، والتي لا نحتاج إلى الحفر في نتاجه للاستدلال عليها ، ومنها قوله :

لا كتاب خطواتي كتابي ، لغتي خطواتي ، كل سطر بلاد
أتفحص أنحاءها عشبة عشبة [١٩]

تشير التعالقات الاسنادية في النص إلى مسحة أسطرة تكشف عن مرمزات مثيولوجية ، تؤطر خط الايمان الاعتقادي وتُظهر شيئا من جوانياته .

كما في قوله :

ما أقول لأسلافي الآن ؟ إن كان ثمة رب
احد واحد ، فلماذا
لا يقول لأبنائه : سواء
كلكم ؟ ولماذا
يقول لأولئك : اقتلوا هولاء؟ لماذا
يفضل هذا على ذاك ؟ يعطي لهذا
بيت ذاك ؟ يبيح لهذا
أن يسود ؟ ويأمر هذا ان يكون له خادما وعبدا [٢٠]

يطرح النص متواليته اللغوية الباثة لمواقف الشاعر الفكرية والتصورية المرتبطة بالتجربة أو بالأيديولوجيا الاعتقادية ورؤيا العالم بشكل عام ، وهو يحاول زعزعة بنية التفكير الجمعي ضمن علائقية من التساؤلات التي تقود إلى اللا جواب ، وكأنه ينحى إلى خلق جو تصطرع فيه المتضادات بين الاثبات وعدمه ، وبين الألوهة ونفيها ، الحرية وضدها ، ومستعملا حيله النسقية ، التي استطاع من خلالها أن يصيب كثيرا من قرائه ومتابعيه والمعجبين به شاعرا ومنظّرا بعمى ثقافي ليس بالقليل ، ومنحه فرصة كبيرة لتمرير أنساقه المضمرة .

و حينما يعرّف أدونيس الشعر بأنه رؤيا ، انمّا يحيل على ما جاء به القرآن الكريم ، الذي يدعو للثبات والقيم الأخلاقية ، وهو يرى أن نظرة القرآن الكريم للشعر والشعراء مهذبة وصارمة إلى حدّ كبير [٢١] .

و لعل ما ذكره في كتابه الثابت والمتحول يؤكد هذا الافتراض ،إذ يعتقد ان ظهور الإسلام قد ((نقل الشعر القديم ولغته من مستوى الطاقة الخلاقة إلى مستوى الأداة والوسيلة ، وجعل الشعراء أمرا نافلا يمكن الاستغناء عنه ، فالشاعر في الإسلام ليس ذاتيا ، وإنما هو جزء من الجماعة الإسلامية ، فليس هو الذي يفكر ، بل الجماعة ، وليس هو الذي يكتب ، بل الشكل واللغة ، الأمر الذي أدى إلى ضعف الشعر كما ونوعا)) [٢٢] . في حين يرى أدونيس أن الشاعر ذو إمكانية عالية توازي مرتبة الأنبياء الذين خصهم الله تعالى بالرؤيا .

ولكي يكون الإنسان الاعتيادي ذا رؤيا _ هي خرق للعادة _ يجب ان يكون ذلك بتدخل السماء (معجزة) ، أي رسالة سماوية يبعثها الله : وبما ان الرسالة السماوية لا تكون إلا للأنبياء فان الشاعر يقابل النبي ، والنتيجة يكون الشعر نبوة ، ولا يمكن ان يكون الشاعر إنسانا عاديا ، بل هو صاحب معجزة (نبي) ، ويقدم قيمة مقترحة تسخر بانقلابية على ما هو ثابت في يقين الناس ، :

يقرأ الطالعون من الوحي ما يتيسر منها :

زمن بائر ودم نافر

اهديهم أيها الشاعر[٢٣] .

لكن يبدو أن هذه النبوة التي اقترحها قيمة فكرية لرؤيا خارقة ما امتلكت عنده ثباتا دائما ، ما جعله يفكر وعلى نحو مفاجئ في مغادرة سديميتها :

قلقي فيك أن النبوة

لا تسافر في شرياني ، في خلجاتي

قلقي أنها لا تلامس إلا

زبد الجسم والنفس والكلمات [٢٤] .

وقد بدت ملامح التراجع عما زعمه حقيقة يمكن أن تكون بديلا يكتسح بنية الوعي بالصادم ويهتك الحجاب عن ترميزها الملغز [٢٥] ، والمغلف لرؤيته غير المتغلغلة إلى أعماق القبول والتسليم .

وفي هذا تتضح لنا سطحية نظرية أدونيس في الشاعر النبي وفي الشعر والنبوة وهي تمثّل أوليّ للحيل الثقافية التي استطاع من خلالها الهيمنة على ثقافتنا المشاعة ومن ثم تمرير كثير من طروحاته سواء أكان منها شعرياً أم غير شعري .

٢ – المرأة والجسد :

تناول أدونيس التأريخ والتراث على نحو مخالف يرضي نزقنا الفكري ونزوعنا النفسي للتمرد على كل ما هو ثابت يؤرق إمكاناتنا ، ويحرّك فينا إمكانية (ابتداء لا يمارس ما مورس ، ابتداء يخلص من تصنيفه داخل الثقافة الموروثة)) [٢٦] ، نحو الانعتاق والتجدد إلى درجة أنه لا يجد كثير صعوبة في جرّنا إلى الاعتقاد والتسليم به ، والتلذذ والإمتاع ونحن نتحسس الحرية إذ نفكر به على هذا النحو المغاير، في موضوعة المرأة عبر التأريخ ، إذ إنَّ مكانة المرأة معروفة في التاريخ الإنساني وإلى الآن ، وكيف نظر إليها الرجل بمنظار الدين والوجود.

صاحب الرؤيا الأدونيسية البحث عن الحرية للمرأة من كل الإجحاف والظلم الذي أصابها ، وما حرية الجسد عنده إلا واحدة من هذه الحريات الخاصة وهي عنده في ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) لا تعدو أن تكون صيرورتها عهرا من نوع خاص فيها كثير من استلاب غائر يمس المرأة باغتراب حيواني شديد يجعل منها حاضنة لاستفحال رجولي ، فالمعطى الدلالي لهذا الديوان يعطي أرجحية واضحة لألفاظ : (الجسد، السرير، والفراش) ، وفي هذا إيحاء على الاستدلال بأن ثمة مؤانسة فحولية وإمتاع نفسي يدفعه هو أولا (للتمؤسس) على خوض هذا النوع من النبوءة الخاصة ، فهي ليست إلا إشارة من إشارات تلك الرؤيا المجحفة بحق المرأة ، وشاهد من شواهدها :

((جسدي ليس منها)) تقول تعاليمهم
أتقلب فيه
وتهت ، وغنيت ، وصليت ، وأنسقت
فيه من فضاء إلى آخر
فلماذا تقول تعاليمهم جسدي ليس مني ؟ [٢٧]

وهنا نلاحظ المحاولة الأدونيسية للظهور في حالة من الحياد عندما يطرح تلك المقولات تحت عنوان (تقول تعاليمهم) ، لكنه لا يستطيع أن يكمل حالة الحياد أو أن يضع القارئ بهذا الحياد ; لأنه ما يلبث أن يتقمص صوت المرأة ليقول بصوتها ويقدم لائحة الاتهامات لتلك التعاليم التي أفقدتها جسدها ; ليؤكد على مقولة الجسد الذي يحاول أدونيس أن يحرره من مسافاته ليعلقه في مسافات لا تعاليم فيها .

اليوم أسلمت جسمي

لهوى شهواتي وهتفت انتشاء

أين جسمي ، لم ينزل اليوم نجم علي (٢٨).

و يعد جسد المرأة واحدا من الأقنعة الثقافية التي مرر من خلفها أدونيس المحظور في نسقه المضمر فهو أراد ان يمحو الفوارق _ ولو نسبيا _ بين الأدب الغربي والأدب العربي ، هو وبعض من سار على منواله جعل المحظور في الثقافة العربية مقبولا كما هي الحال في الثقافات الغربية .

جسدي فتنة ولغة صورت

من بهاء الغريزة من غبطة الجنس

متروكة لعذاباتها (٢٩) .

أن ادونيس لا يتورع من أن يتحدث بأي شيء عن كل شيء ، لا سيما ألفاظ الجسد والجنس ، وأي شيء يخدش الحياء ، وبما يخالف واقعنا وثقافتنا لإحداث صدمة :

مرة قال جسمي : قدمت حبي قربان تيه

إلى الله ، ما ذلك الدوار

الذي قادني اليوم نحو الفراش (٣٠) .

ولا يكتفي أدونيس بالبحث عن الجسد وتحريره ، بل يذهب بعيدا في القراءة التاريخية ، وفي الأسئلة الصادمة للذهنية العربية ، منطلقا من ذهنيته التي تحتفي بالأسئلة التي لا جواب لها ، بل مجرد إثارتها يكفي لخلخلة المقولات التاريخية ، والجدليات الثابتة ، سعيا إلى هدمها، كهذه التساؤلات التي تأخذ شكل السؤال الفلسفي والوجودي في البحث عن حقيقة المرأة :

والأنوثة فيها – تراها

لم تعد غير لفظ – ؟؟ جسدا من كلام

وجنسا ينتقل في معجم الوحي

من آية إلى آية ؟ (٣١) .

ومن الملاحظ على هذه الأسئلة وغيرها إنما هي أسئلة مشحونة بمواقف مختلفة من الوجود ، من الدين و التعاليم ، من التاريخ و التراث ، من المقدس ، وكأنها دعوة لخلخلة كل شيء ، ولكن هذه الخلخلة لا تحمل رؤى بديلة إنها فقط تشتغل على صياغة السؤال

وإلقائه كحجر في بحيرة القارئ ، ليخترق المفاهيم ، والثقافات ومن ثمّ يخترق ويربك يقينيات القارئ السكونية وكأن النص بما يثير من أسئلة ، يشرع الباب أمام كل التساؤلات ، لأن الثقافة الحقيقية عند (أدونيس) تكمن في القدرة على التساؤل لا في الاستسلام للأجوبة الجاهزة [٣٢] ، ، إذ يؤكد بطروحاته أن السؤال فاتحة للوجود وفاتحة للخلاص ، ويدعو لتحرير الكائن ، وتحرير الفكر و اللغة حتى التحرر من الإله بوصفه ذكرا :

أيها الذكر المتربع في معجم الوحي

من أنت ؟

اخلع ثياب السماء وجئني

في ثياب الطبيعة

لا نشوة لا كتاب

غير هذا التراب [٣٣].

و من ثم التأكيد على المعنى الخلاصي الذي يحمله الشاعر، ويؤديه خلال رسالته للعالم . رؤيا (أدونيس) إن الجسد عار من كل شيء ; لا يمثل غير نفسه ، ولا يحضر فيه سواه ، وعليه تقول المرأة في القصيدة :

- **جسدي ما بدأت وما أبدأ**
- **جسدي كل ما كتبته يداي ، وما أقرأ**
- **والذي يفتح الطريق إلى الكلمات _ حبالى بأسرارها**
- **وإلى الليل يسبح في ماء تاريخه**
- **جسدي لا سواه**
- **جسدي ما أراه وما لا أراه** [٣٤]

إن مهمة الشعر اذاً تكمن في إثارة الفكر والتجاوز إلى أبعاد أخرى ; وهذا بعض ما كان أدونيس يتوسل به لضمان الجواز إلى القضايا الكبرى التي ربما كانت حصرا بيد الله تعالى ، ولا يستطيع حتى الأنبياء أنفسهم تغييرها أو التعديل عليها ، لحكمة ارتضاها سبحانه ، والأوهام التي تحدث بها الشعراء وصدقوها إنما كانت حكرا على أنفسهم وعلى من يستمرئ مثل تلك التصورات التي تمنح الأشياء فوق طاقتها وتحملها ما لا تطيق .

٣- العرق واللون :

كان العرق على رأس المسوغات (الحيل) التي يتذرع بها أدونيس في جر المتلقين الى سطوة غالبة تحيل لغة الشعر إلى لغة عالية تتمثل الأشياء الجميلة والقبيحة على حدّ سواء فكل يجد معشوقه في شيء ظانا ذلك هو الكمال فيتخيله في أمر معين فيتوجه إليه ويتفانى في سبيله تفاني العاشق [٣٥] **؟!** يعني أن هناك أسئلة يقينية يستطيع ان يوجهها الشاعر لمجابهة هذه الفرادة في التشكيل الشعري : ألا ينبغي للمتلقي أن يكون واعيا بما يقوله الشاعر ،لأنه صاحب رؤيا ، وهذه الرؤيا من خصائص أولياء الله فهي عطاء وتميز من السماء ، لهذا جوّز أدونيس لنفسه أن يتحدث في قضية تاريخية ذات بعد ديني كبير يرقى للمسائل العقائدية ، وهي قضية هاجر زوجة النبي إبراهيم (ع) :

هذه سيرة أمراة عبدة وابنها
نفيت ، لا لشيء سوى انها
كسرت قيدها . ويحكى
إنها زوجت لنبي ،
وان ابنها
صار من بعدها نبيا . ولكن
لم يجيء في تعاليمه
انها حررت [٣٦]

هذا الحديث بهذه الجرأة لا يصح من الناس الاعتياديين ، ولكنه يصح ممن هو شاعر بمرتبة الأنبياء وهو قيمة قد يجدها في نفسه وحده ، تجوّز له أن يتحدث بما شاء ، ولا ضير عليه ، إذ ليس على الشاعر من حرج .

ولعل هذا ما اعتقده كثيرون ممن أعجبوا بهذه النظرية (الشعر نبوة) وهي ما قاله (أدونيس) وباتت نظريته واقعا فكريا فرض سلطته عليهم ، إذ نادى به قبله (جبران خليل جبران) ، أليس من حق المتلقي أن يشعر أن للقبح جماله البارق وحسنه اللاذع ألا ينبغي أن تكون له قناعات ومقدسات لا يجوز للآخرين التجاوز عليها أو حتى الخوض فيها **؟!**

لا أسميه ، أصغي لصحراء

حبي تبكي ، أترى يعرف الرمل

ما يكتب الضب ؟

ما يقرأ الضب في وكره ؟ (٣٧) .

كل هذه الأسئلة يكون جوابها واحد ; ان الشاعر يقول ما يراه ، وكيف يرى ، وليس لأحد الاعتراض عليه ، لأنه لا يُسال عمّا يفعل وهم يُسألون ! إذ لا حرج عليه .ولعل من أبرع الحيل التي يعبر بها أدونيس عن آرائه وتصوراته التي تناقش كل الحدود والمقدسات تكمن في انحياز غير مؤسساتي للعرق يطارده وقد لا يؤمن به :

هذه امرأة

تعشق البحر ، لكن

هل تضيء إلى العبد في نومها (٣٨) .

لكنه يراه فاعلا في مجتمعه ولا يعنيه لصالح من يكون فهو يختار شيئا مثيرا لا اتفاق عليه ثم يدعوك لأن تثور ، وكيفما تشاء ، تحت أي شعار كان:

هل أقول للوني تغير

ولماذا

ميز الله بين أبنائه (٣٩) .

لقد تجاوز أدونيس كثيرا من الحدود الفنية والفكرية وربما العقائدية ، وراح يتحدث عن مسائل وقضايا كبرى في اللون ، لها أبعاد دينية يحق له الحديث عنها بأي شكل من الأشكال في مجال الخلق الشعري .

ماذا أقول لنفسي وتلك السماء

استعبدتني تعاليمها (٤٠) .

فهو يعتقد ان المجتمع العربي لم يغير بنيته العقلية والفكرية كما فعلت المجتمعات الأخرى لهذا((يبقى الشاعر العربي والمفكر في حالة انفصال عن المجتمع ومن هنا الشاعر الجديد يجب ان يهدم كل ما يبقي هذا المجتمع في التخلف وكل ما يحول بينه وبين التغيير والتجدد)) (٤١) .

لماذا لا أقول لطفلي

أمك العبدة الجارية

جسد يقحم الغور والهول والشهوات

وأسوارها العالية (٤٢) .

والغريب أن أدونيس يستطيع أن يقنعنا بأن ثمة جمالا طاغيا يمكن أن يستشعره المتلقي من إثارة المختلف أعني الجمال الآخر على مستوى الإبداع الشعري ، ولأن أدونيس مؤمن إيمانا كاملا بأهمية تثوير إلماعات اللون في التوصيف الحسي وما يمكن أن يثير ذلك من نوازع عرفية موغلة في التجذر الفكري لمدركات الذهن يتصور أن ثيمات المرأة الجمالية هنا في الاختلاف / الأم + العبدة + الجارية ، فضلا عن تواردات حسية يقحم الجسد بوصفه كائنا غريبا يمكن أن يصف المرأة على نحو متفوق .

٤- التأريخ ..هيمنة شاملة :

و مفهوم أدونيس للشعر الحديث أن يفرغ الكلمة من معناها السطحي المألوف ويعطيها معنى آخر غير مألوف وهذا ديدن كل الفنون ، فجوهر الشعر الجديد قائم على تجاوز القيم الواقعية والانخراط في صدمة الهيمنة الثقافية إذ إن كل موجود يكون فيه طبعان فاعل ومنفعل ظاهران ، وطبعان فاعل ومنفعل باطنان (٤٣) . والقصيدة العظيمة في منظوره لا تسكن في حال واحدة ، ومقياس عظمتها وقوتها في مدى ما تعكسه أو تصويرها لمختلف المظاهر الواقعية ، بل في مدى إسهامها بإضافة جديدة ما إلى العالم (٤٤) .وهذا هو الأساس الذي قام عليه ديوانه (تاريخ يتمزق في جسد امرأة).

اذاً الثورة كما يراها هي ثورة فكرية شاملة ، لا تسعى لتغيير نظام سياسي فحسب بل تصبو إلى إحداث تغيير فكري وجذري لقيم حضارية راسخة كثيرا ما يتجاوز فيها الشاعر قيم الزمان والمكان نحو تقانة بديلة تطرح ثيمة معينة معادلا موضوعيا لهذا التغيير.

ها هو الآن يغفو

بلا فتنة

بلا شهوة

إنها مكة ؟ أتوهم

كلا إنها القدس ؟ كلا

إنها زمزم [٤٥].

لقد تأثر أدونيس بالفكر الغربي بشكل كبير جدا ، وهذا التأثر لا ينكره حتى أدونيس نفسه، وهو أمر طبيعي لمثقف مثله إذ اكتظت الساحة الأدبية بالنظريات الغربية لفترة طويلة جدا لاسيما في خمسينيات القرن الماضي ، وهذا بدوره أحدث إرباكا واضحا في الخريطة الثقافية العربية بشكل ما ، لذلك ذهب للحديث عن رموز تاريخية أو أشخاص لهم حضورهم في أذهان الناس على نحو موارب يصدمهم بقوة في ذاكرتهم العرفية :

في الطريق إلى القدس أو مكة

نعجة كل ميراثها

حمل ضائع [٤٦] .

يجعل أدونيس من نفسه المصلح والمصحح والمواجه للإرث التاريخي _ إذ كثيرا ما يعمد إلى التحرش بالتاريخ محاولا زعزعة بعض المسائل أو المواقف بدعوة الإصلاح الرؤيوي ، أي أنه ينزع إلى مشاكسة ثقافة الانجراف وراء حركة التاريخ [٤٧]، فيقول :

ينظرون إلى رأي هابيل في حفرة

وقابيل يرقص

أتراها الأخوة في حكمة الوحي قتل [٤٨].

إغواء أدونيسي يحيل القارئ إلى المرجعية التاريخية للنص ، هذه التاريخية التي تشكل كثافة إبداعية تزيح الحقيقة التاريخية لينهض النص بحقائق يشير إليها بعبارته الغامضة أحيانا ، والكاشفة أحيانا أخرى .

هد جلجامش بيته ، ملذاته ، هاجرت–

أصدقاء ملذاته هاجروا [٤٩].

وكأنه بهذا العمل يحاول أن يثير في ذاكرة المتلقي مساحات من الحيرة والقلق لينتج حالة توتر شعري داخل لحظة اليقين التاريخي ويثير الاستفزاز لها ، لذلك لا يمكن ان يقرا أدونيس بعيدا عن حالة التراكم التاريخي الذي يتشكل في نسقه الثقافي أو يشكله في مرجعياته الثقافية تأريخا أدونيسيا موغلا في الخرافة.

الخاتمة

يعطي أدونيس في ديوان (تأريخ يتمزق في جسد امرأة) التخيل والابتعاد عن الواقع أهمية قصوى في فهم الأمور ، تلك التي لا يمكن إدراكها بالعقل والمنطق ، ربما جاءت الرؤيا نتيجة حتمية لثقافته المتأثرة بالفكر الصوفي منذ أيام طفولته ; فاستثمرها أيما استثمار ، وراح يحتال بها ليمرر من خلالها كل المسائل التي من شأنها أن تفضحه فيما لو أعلن عنها أو تحدث بها صراحه ، بلغة مباشرة ومن غير ترميز أو تشفير ، فالظاهر أن اللغة ذات الإيحائية العالية والترميز البالغ هي صفة ملازمة للخطاب الشعري بصورة عامة ، كما انها المميز بين ما هو شعري أو غير شعري عند أدونيس.

Abstract

Cultural Tricks

Domination and Pleasure

Breach in Reading the Book

History Shredding in Woman's Body

(Tareekh Yatamaziq fe Jasad Emraah) By Adonis

Keywords: Adonis, tricks, pleasure.

Assist. Prof.

Nawfil Younis Al-Hamdane (Ph.D.)

University of Diyala/ College of Education for Human Sciences

The cultural criticism observes what is passed by texts with its rhetorical and aesthetic tricks from patterns of deception through types of cheating by using what is rhetorical and aesthetic or metaphorical. This needs open reading which underlies of concepts under the cover of texts and what folds on it of cultural practices connected to certain imagery towards some situations. Especially, the communities could have in it clashes or differences in concepts.

Adonis adopts opinions, visions, and imagery conceptions incarnated in his poetic speeches sometimes by means (figures) and other times (demolished). His speech in the book History Shredding in Woman's Body (Tareekh

Yatamaziq fe Jasad Emraah) is anti-prior writing in which it reveals or discovers some of what the society cultures has been modest in regulations and figures that are concerned with some themes like religious, women, roots, and history. So the richness of a literary text by cultural roots and categories formations are distracted by differences in its presence response even if it represents an individual character, but it interfered with other views formed a general figure incarnating inherited problems but they are not far away from appearances. This calls cultural criticism observation to reveal and announce what is foisted and deceit inside the text.

الهوامش

(١) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبدالله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي ،ط٣ ، ٢٠٠٥ ، ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٧ .

(٣) الأنساق الثقافية في رسائل الجاحظ (أطروحة دكتوراه) مثنى حسن عبود الخفاجي : ١٢٠.

(٤) ينظر: تحولات الخطاب الشعري عند أدونيس بين (فلسفة الجزئيات / فلسفة الكليات) ، عصام شرتح ، دار صفحات للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠١١ : ٣٢٩ .

(٥) ينظر: جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد ، د. محمد الشيخ ،دار الهادي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥ م : ١٠٧.

(٦) خطاب الحداثة ، دراسة ثقافية لمشروع الحداثة في العراق ، د. كريم شغيدل : ٢٣ .

(٧) خطاب الآخر ، خطاب نقد التأليف الأدبي الحديث انموذجا ، د: عبد العظيم السلطاني : ١٥ – ١٦

(٨) ينظر : أساليب الشعرية المعاصرة ، صلاح فضل ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ : ١٧٥.

(٩) زمن الشعر ، أدونيس ، دار العودة ،بيروت ، ١٩٦٢ ، ٢٠ .

(١٠) قبيلة من الأنهار – الذات ، الآخر ، النص – علي جعفر العلاق ، دار الشروق ، عمان الأردن ، ٢٠٠٦ ، ٣٥ .

(١١) ينظر : أساليب الشعرية المعاصرة ، صلاح فضل ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ : ١٧٥.

(١٢) زمن الشعر ، أدونيس ، دار العودة ،بيروت ، ١٩٦٢ ، ٢٠ .

(١٣) الديوان ،١٢١ .

(١٤) ينظر الشعر والتأويل ، عبد العزيز بو مسهولي :١٨.

(١٥) الديوان : ٤٧ .

(١٦) ينظر : رهانات الحداثة ، د.محمد الشيخ ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٧ م : ١٠٦

(١٧) تحولات الخطاب : ٢٥٣ .

(١٨) ينظر : الإسلام والحداثة ، إدريس هاني ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥ م : ٣٣

(١٩) الديوان : ٤٨ .

(٢٠) الديوان : ١٢٤ .

(٢١) زمن الشعر ، أدونيس ، ٢٠ .

(٢٢) الثابت والمتحول ، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب ، أدونيس ، دار الساقي ، بيروت ،٢٠٠٢ ، ٢١٤ .

(٢٣) الديوان : ١٢٨ .

(٢٤) الديوان : ٧٣ .

(٢٥) ينظر التلقي والتأويل ، محمد عزام : ٥٥ .

(٢٦) الثابت والمتحول : ٣ / ٣١٤ .

(٢٧) الديوان : ١١٠ .

(٢٨) الديوان : ٥٩ .

(٢٩) الديوان : ٩٧ .

(٣٠) الديوان : ٧٧ .

(٣١) الديوان : ٦٦ .

(٣٢) ينظر: فاتحة لنهايات القرن ، أدونيس ، دار التكوين للنشر – سوريا ، ط ٣ ، ٢٠١٠ م: ١٩١ .

(٣٣) الديوان : ٦٧ .

(٣٤) الديوان : ١١١ .

(٣٥) ينظر : ما هو العرفان ، الشيخ مهدي يونس ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،٢٠٠٧ م : ١٣٤ .

(٣٦) الديوان : ٧٦ .

(٣٧) الديوان : ٢١ .

(٣٨) الديوان : ٧٦ .

(٣٩) الديوان : ٤٦ .

(٤٠) الديوان : ٦٢ .

(٤١) زمن الشعر ، ٢٠ .

(٤٢) الديوان : ٨٦ .

(٤٣) خطاب الآخر ، د. طرادة حمادة ، دار الهادي ، بيروت ،لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٦ م : ١١٢

(٤٤) زمن الشعر ، ١٣٧ .

(٤٥) الديوان : ٣٢ .

(٤٦) الديوان : ٢٢ .

(٤٧) ينظر ، فاتحة لنهايات القرن : ١٩٢ .

(٤٨) الديوان : ٧٢ .

(٤٩) الديوان : ٧٢ .

المصادر والمراجع

- أساليب الشعرية المعاصرة ، صلاح فضل ،دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ م .
- الأنساق الثقافية في رسائل الجاحظ (أطروحة دكتوراه) مثنى حسن عبود الخفاجي ، اشراف : أ .د. عباس محمد رضا ،كلية التربية جامعة بابل ، ٢٠١٦م .
- الإسلام والحداثة ، إدريس هاني ، دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥ م .
- تأريخ يتمزق في جسد امرأة (ديوان شعر) ، أدونيس ، دار الساقي ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٨ م .
- تحولات الخطاب الشعري عند أدونيس بين (فلسفة الجزئيات / فلسفة الكليات) ، عصام شرتح ، دار صفحات للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ٢٠١١ م .
- التلقي والتأويل بين سلطة القارئ في الأدب، محمد عزام ، دار الينابيع ، دمشق ،ط١ ،٢٠٠٧ م .
- الثابت والمتحول ، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب ، أدونيس ، دار الساقي ، بيروت ،٢٠٠٢ م .
- جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد ، د. محمد الشيخ ،دار الهادي للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥ م .
- خطاب الآخر ، د. طرادة حمادة ، دار الهادي ، بيروت ،لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٦ م .
- خطاب الآخر ، خطاب نقد التأليف الأدبي أنموذجا ، د. عبد العظيم السلطاني ، دار الأصالة المعاصرة ، بنغازي ، ليبيا ، ٢٠٠٥ م .
- خطاب الحداثة ، دراسة ثقافية لمشروع الحداثة في العراق ، د . كريم شغيدل ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠١٣ م .
- رهانات الحداثة ، د.محمد الشيخ ،دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٠ م .

- زمن الشعر ، أدونيس ، دار العودة ،بيروت ، ١٩٦٢ م.
- الشعر والتأويل ، عبد العزيز بو مسهولي ، دار أفريقيا الشرق ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧ م .
- فاتحة لنهايات القرن ، أدونيس ، دار التكوين للنشر – سوريا ، ط ٣ ، ٢٠١٠ م .
- قبيلة من الأنهار – الذات ، الآخر ،النص – علي جعفر العلاق ، دار الشروق للنشر ، عمان . الأردن ، ٢٠٠٦ م .
- ماهو العرفان ،الشيخ مهدي يونس ،دار الهادي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ،٢٠٠٧ م .
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبدالله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي ،ط٣ ، ٢٠٠٥ م.